تجليات الحنين المكاني والزماني في شعر عنترة

-دراسة وتحليل-

Manifestations of Spatial and Temporal Nostalgia in the Poetry of ʿAntarah: -A Study and Analysis-

م.د رفل احمد علي

جامعة تكريت _ كلية التربية للبنات

rafal.ahmed@tu.edu.iq

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مظاهر الحنين المكاني والزماني في شعر عنترة بن شداد، انطلاقًا من تحليل نصوصه الشعرية ودراسة الصور الشعرية التي تعكس ارتباطه بالماضي وارتباطه بالأمكنة التي شكلت تجربته الإنسانية، إذ يسلط الضوء على كيفية استعمال الشاعر للذكريات والمشاهد الطبيعية والأطلال لاستحضار زمن مضى، والتعبير عن شوقه لما فقده من حب وأرض وأحداث، كما يبرز البحث التفاعل بين الذاكرة الفردية والجماعية في شعره، إذ يتجاوز الحنين حدود الفرد ليصبح تجربة إنسانية شاملة، تجمع بين الحنين إلى المكان والزمان.

الكلمات المفتاحية: الحنين، المكان، الزمان، عنترة.

Abstract

This study aims to examine the manifestations of spatial and temporal nostalgia in the poetry of ʿAntarah ibn Shaddād. It proceeds from an analysis of his poetic texts and the imagery that reflects his deep connection to the past and to the places that shaped his human experience. The research highlights how the poet employs memories, natural scenes, and abandoned dwellings (aṭlāl) to evoke a bygone era and express his longing for what he has lost—of love, homeland, and past events. It also demonstrates how the interplay between individual and collective memory emerges in his poetry, where nostalgia transcends the boundaries of the self to become a universal human experience that weaves together longing for both place and time.

Keywords: nostalgia, place, time, ʿAntarah.

المقدمة

تتعدد الحالات النفسية والوجدانية التي يختبرها الإنسان، ومن بينها حالة فريدة تعرف بالحنين، وهي ليست مجرد استرجاع عابر للذكريات، بل رحلة داخلية عميقة تنقل الفرد من حاضره الملموس إلى أزمنة وأماكن غابرة، ويكمن جوهرها في كونها عملية مقارنة تلقائية بين الواقع المعاش والماضي الذي ينظر إليه غالباً بعين مثالية[١]؛ فهو ليس مجرد شعور

١- ينظر: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح كلية الآداب والعلوم الانسانية، ١٩٩٣ :٧

سطحي، بل عاطفة فطرية متجذرة في النفس البشرية، تدفعها إلى الشوق لكل ما هو مألوف ومحبب رغم ما يحمله من لمسة حزن على ما فات، إلا أن الذاكرة تمنحه لذة خاصة، إذ تعيد رسم صور الأماكن، والأشخاص، والأحداث التي افتقدت بلمسة من المثالية والجمال[١]، وفي سياقات أخرى قد يتخذ الحنين طابعاً أكثر عمقاً ليصبح شعوراً بالكآبة ينتاب الإنسان بسبب فقدان الوطن أو الابتعاد عن جذوره، وهو ما يعرف بالحسرة على الماضي الجميل[٢]، وهذا الشعور المركب يجمع بين الألم الناتج عن البعد واللذة المرتبطة بالتذكر، مما يجعله موضوعاً جديراً بالبحث والتحليل.

تكتمل بذلك الصورة ليتضح أن الحنين يشكل عاطفة جياشة وصادقة تنبع من أعماق الذات الإنسانية، موجهة نحو كل ما فقده المرء من مكان وزمان؛ فهي ليست مجرد ومضة عابرة، بل هي حالة شعورية عميقة تتطلب التعبير عنها بشتى السبل، وهي لا تقتصر على فئة دون أخرى من البشر، مع ذلك يبرز الشعراء كشخصيات استثنائية في هذا المضمار، إذ وهبوا قدرة فريدة على تجسيد هذه المشاعر وتحويلها إلى لوحات فنية خالدة، فبينما يعيش الإنسان العادي حنينه في وجدانه، يمتلك الشاعر ناصية اللغة ليصوغ من هذا الشعور تجارب إنسانية عالمية، تتجاوز الزمان والمكان، لتبقى محفورة في ذاكرة الأجيال كشاهد على قوة الحنين وتأثيره العميق في الروح البشرية.

وفي هذا السياق، يقف عنترة بن شداد مثالًا ساطعاً للشاعر الذي استطاع أن يخلد حنينه ويوثقه في نتاجه الشعري، فقد شكلت حياته، بما حملته من فروسية وحب وفقد، منبعاً لا ينضب لهذه العاطفة، فلم يعبر عن حنينه الخاص فحسب، بل من خلال قصائده منح صوتاً

١- ينظر: جمالية المكان والحنين إلى المدينة المفقودة: يمنى عيد، مجلة الآداب، ع٩|١٠، بيروت-لبنان، ١٩٩٧، ٧٦.

٢- ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة:أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، القاهرة-مصر، ٢٠٠٨: ٥٧٤.

لحنين البشرية جمعاء، محولاً الشوق إلى فن، والغائب إلى حاضر حي في النص الشعري، لتصبح تجربته الشعرية مرآة تعكس أبعاد الحنين وتجلياته في الوجدان الإنساني، وقد اقتضت هذه الدراسة أن تكون على المباحث الأتية:

المبحث الأول

((الحنين المكاني))

يعد المكان الإطار الذي يعالج الحدث وفقًا لخصوصية اللحظة التي يقع فيها، حتى بات يعد انعكاسًا واضحًا ومعبرًا عن الرؤية النفسية الفردية؛ فالمكان من هذا المنظور يتحرر من كونه موقع جغرافي أو بيئة خارجية ليصبح تمثيل بصري ودلالي لما يدور في أعماق النفس البشرية[١]؛ فهو ليس مجرد شوق عابر، بل هو رجفة في القلب حين يستدعي الإنسان تفاصيل الأماكن التي احتضنت لحظاته الأولى، ووشمت ذاكرته بندى الطفولة، أو في دفء مرحلة مفصلية من حياته[٢]، وعلى رغم أن الزمن قد يبدل ملامح هذه الأمكنة، ويغمرها التطور، أو يطويها النسيان، إلا أن ارتباط الإنسان بها يظل حياً نابضاً بما لا يمحى[٣]؛ فلا يستسلم الاديب لفقدها، بل يستدعيها من أعماق الذاكرة وكأنه يرمم جدرانها بالحنين ويزرع في زواياها نبضاً لا يشيخ ليعيد رسم ملامح الماضي، بل ليحقق أهدافاً متعددة، في مقدمتها استحضار الزمن الضائع، وكشف التباين بين سحر الماضي وقسوة

١- ينظر :الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا:إبراهيم جنداري، ط١، ٢٠١٣ :٢٠٥.

٢– ينظر: أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف: د.مرشد احمد، دار الوفاء، مصر، ط١، ٢٠٠٣: ٤١.

٣– ينظر: ياسين النصير، شحنات المكان:ياسين النصير، وزارة الثقافة، الدوحة– قطر، ط١، ٢٠١٠: ٧٧.

الحاضر، إلى جانب استعماله أداة للتأمل في الذات، والبحث عن ملامح الهوية في ظل التحولات المتسارعة.

يتجسد الحنين المكاني عند عنترة ويتسلل إلى نبرة خطابه؛ فيجعل من المكان بطلاً للذكرى ومسرحاً للعاطفة في قوله[١]: (الكامل)

لَئِن أَضحَتِ الأَطلالُ مِنها خَوالِياً ... كَأَن لَم يَكُن فيها مِنَ العَيشِ مُبهِجُ
فَيا طالَما مازَحتُ فيها عُبَيلَةً ... وَمازَحَني فيها الغَزالُ المُغَنَّجُ
أَغَنُّ مَليحُ الدَلِّ أَحوَرُ أَكحَلٌ ... أَزَجُّ نَقِيُّ الخَدِّ أَبلَجُ أَدعَجُ

تظهر الأبيات الشعرية انبعاثاً جلياً لمشاعر الحنين المكاني، إذ لا يقتصر الأمر على مجرد استحضار الماضي بل يتجاوزه إلى تصوير عميق لتأثير المكان في تشكيل الذاكرة والوجدان؛ فالشاعر لا يرثي الاطلال بوصفها مواضع اندثرت، بل يجعل منها محوراً تتجسد فيها لحظات عاشها بكل جوارحه، حتى غدت هذه الأطلال خزاناً حياً للذكريات؛ وهنا لا يغدو المكان مسرحاً خامداً، بل كيانًا حيًا يختزن العاطفة ويستدعيها بمجرد النظر أو التذكر.

يبرز الحنين المكاني بوضوح من خلال التناقض بين حاضر المكان الموحش(خواليًا) وماضيه المفعم بالبهجة والوصال؛ فالخلو المكاني لا يُستقبل بأسى جامد، بل يثير في الشاعر صورًا نابضة بالحياة تجسدها افعال الممازحة واللقاء؛ فالمكان هنا ليس وعاءً جامدًا للذكريات بل هو شريك في صنعها، ولهذا فإن كل زاوية فيه وكل ظل يحمل في طياته ومضات من زمن جميل لا يغيب عن وجدان الشاعر.

وتتجلى خصوصية هذا الحنين في تركيز الشاعر على وصف الغزال المغنج، بوصفه رمزًا للحبيبة وذكرى اللقاء؛ فالتركيز على الأوصاف الحسية المكثفة(أَغَنُّ، أَكْحَلٌ، أَزَجُّ، أَبلَجُ، أَدْعَجُ) ليست مجرد صفات جمالية، بل شفرات وجدانية تعيد تكوين التجربة كاملة بما كانت

١–ديوان عنترة:٨٧

تحمله من تألق ورهافة، وتربطها بالمكان الذي احتواها، وهذا الاستغراق في التفاصيل يعكس مدى تداخل الذات الشاعرة مع المكان بحيث لا يمكن فصل صورة الحبيبة عن مشهد الأطلال والذكرى عن الجغرافية التي احتضنتها؛ وبذلك تخرج الأطلال في النص عن كونها رمزًا تقليديًا للفناء، إلى كونها كائنًا ذا ذاكرة، وشاهدًا أمينًا على لحظات أليفة، ومجالًا يتشكل فيه الحنين المكاني من خلال التفاعل بين الذات والمكان؛ فإن الحنين المكاني هنا يتجاوز كونه توقًا إلى مكانٍ غاب، ليصبح استعادة حية لتجربة إنسانية تشكلت بين جدرانه وظلاله، وما تزال تسكن وجدان الشاعر بكل تفاصيلها و ألوانها.

يتحول المكانُّ من مجرد موقع جغرافي إلى كيان شعوري ينبض بالذكريات والعواطف في قوله[1]: (الوافر)

قِـف بِالـدِيارِ وَصِـح إِلـى بَيـداها فَعَسـى الـدِيارُ تُجيـبُ مَـن ناداهـا
دارٌ يَفـوحُ المِسـكُ مِـن عَرَصـاتِها وَالعـودُ وَالنَـدُّ الـذَكِيُّ جَناهـا
دارٌ لِعَبلَـةَ شَـطَّ عَنـكَ مَـزارُه وَنَـأَت لَعَمـري مـا أَراكَ تَراهـا

تظهر ملامح الحنين المكاني عبر مخاطبة الشاعر للديار خطاباً مباشراً، يحمل بين طياته شحنات وجدانية عالية افتتحها بنداء حار للمكان وراح يتوسله أن يرد عليه، مما يعكس عمق العلاقة بينه وبين هذه الديار التي كانت يوماً موطناً للحب والوصال، وهي بدورها ليست مجرد فضاء جامد أو خلفية صامتة، بل كيان حسي تنبعث منه روائح المسك والعود والند ورموز العطر المرتبطة بالجمال والحضور الانثوي (عبلة)، وهذه الروائح لا تأتي عبثاً بل تعيد تشكيل ذاكرة الشاعر وتستدعي لحظات دافئة عاشها هذا المكان، فيتحول المكان إلى وعاء نابض يحتفظ بتفاصيل الحبيب وذكريات اللقاء.

١– ديوان عنترة:٢٢٧

ويشتد الحنين حين يقر الشاعر ببعد محبوبته عبلة عن هذه الديار، فيزداد المكان ألقاً بحضور الذكرى رغم الغياب الجسدي، وهذا التباعد لا يزيده إلا تعلقاً بالمكان، حي تصبح الديار رمزاً للزمن الجميل ومسرحاً للحنين، ومجسداً لفقدانٍ لا ينسى، وبهذا يكون حضور المكان في هذه الأبيات ليس مجرد حضور مادي بل كرمز حميمي تختلط فيه الذكرى بالحس والعطر بالحب والحنين بالألم.

وفي نص آخر يفيض بالحنين ويعكس صراعًا داخليًا بين التعلق بالماضي والرضا بالواقع، وبين الرغبة في اللقاء والاستسلام للفقد فيقول[١]: (الوافر)

قِـف بِالمَنـازِلِ إِن شَـجَتكَ رُبوعُهـا ... فَلَعَـلَّ عَينَـكَ تَسـتَهِلُّ دُموعُهـا
وَاِسأَل عَنِ الأَظعانِ أَينَ سَرَت بِها ... آباؤُهـا وَمَتـى يَكـونُ رُجوعُهـا
دارٌ لِعَبلَـةَ شَـطَّ عَنـكَ مَزارُهـا ... وَنَـأَت فَفـارَقَ مُقلَتَيـكَ هُجوعُهـا
فَسَـقَتكِ يـا أَرضَ الشَـرَبَّةِ مُزنَـةٌ ... مُنهَلَّـةٌ يَـروي ثَـراكِ هُموعُهـا

تجسد الأبيات بنية شعورية متماسكة تتكاثف فيها مظاهر الحنين المكاني والصراع الداخلي عبر أساليب فنية دقيقة، تعيد تشكيل العلاقة بين الذات والمكان؛ فالقصيدة تفتتح بنداء مشروط يفعل التردد الشعوري، إذ يعلق الوقوف على الأطلال بشرط الشجن، مما يعكس تذبذب الذات بين الإقدام والإحجام، ويضفي على الفعل الشعري طابعًا تأمليًا، ويعزز هذا التوتر استعمال الشاعر لأسلوب الترجي في قوله(فلعل عينك تستهل دموعها) إذ تتحول العين إلى مرآة للانكسار، ويصيح الانفعال غير مؤكد، مما يجسد هشاشة الذات أمام الذاكرة، ثم ينتقل الشاعر إلى توظيف الاستفهام بوصفه أداة للقلق الوجودي؛ فيسأل الأظعان ومساراتها لا طلبًا للمعلومة، بل تعبيرًا عن الحيرة والرغبة في استعادة ما لا يستعاد، مما يضفي على النص طابعًا حواريًا داخليًا تخاطب فيه الذات غيابها.

١- ديوان عنترة: ١٥٦.

يبلغ الصراع ذروته حين تستدعى عبلة، بوصفها رمزًا للسكينة والانتماء؛ فيتحول غيابها إلى انهيار للنظام الشعوري، وتجسد الصورة الشعرية أثر الفقد في الجسد عبر مفارقة النوم، مما يجعل الحنين ملموسًا لا مجرد فكرة، وفي محاولة للعثور على عزاء يستدعي الشاعر الطبيعة؛ فيصور المطر والربيع بوصفهما تعويضًا ناقصًا عن الغياب، إذ لا يعيدان الحبيب ولا يرممان الفقد ما يضفي على النص مفارقة بين جمال الطبيعة وغياب الإنسان.

تتداخل الذاكرة مع العاطفة؛ فيصبح المكان أكثر من مجرد حيز جغرافي بل موطنًا للروح ومسكنًا للهوى في قوله[1]: (المتقارب)

أَرضُ الشَـــــرَبَّةِ شِـــــعبٌ وَوادي رَحَلـــــتُ وَأَهلُهـــــا فـــــي فُـــــؤادي
يُحَلّـــونَ فيـــهِ وَفـــي نـــاظِري وَإِن أَبعَـــدوا فـــي مَحَـــلِّ السَـــوادِ
إِذا خَفَـــقَ البَـــرقُ مِـــن حَـــيِّهِم أَرِقـــتُ وَبِـــتُّ حَليـــفَ السُـــهادِ
وَريـــحُ الخُزامـــى يُـــذَكِّرُ أَنفـــي نَســـيمَ عَـــذارى وَذاتِ الأَيـــادي

تتدفق مشاعر الحنين في الأبيات بانسيابية رقيقة تشبه نسيم المساء حين يلامس الوجدان في لحظات السكون عبر تصويرٍ مكاني دقيق وحنون،؛ إذ يذكر(شعب ووادي) ليرسم مشهدًا طبيعيًا يفيض دفئًا وألفة و يعبر عن الحنين ليس بوصفه لحظة عابرة بل كحالة شعورية متأصلة تسكن القلب، ليعلن بعد ذلك ان الفؤاد لم يغادر تلك الديار، وإن تباعدت الخطى، وهنا لا يتجلى الحنين كحالة طارئة، وإنما كوجع مقيم في القلب، توقظه الذكرى وتحييه الومضة، كما في قولة (إذا خَفَقَ البرْقُ منْ حيّهم أَرقتُ وبِتُّ حَليفَ السُّهادِ)؛ فكل ومضة من جهة الوطن تُثير في النفس اضطرابًا وتعيد إلى القلب نبض الأرض الأولى.

[1]- ديوان عنترة: ١٩٦

لا يكتفي الشاعر باستدعاء الصور الحسية من الطبيعة، بل يجعل من رائحة الخزامي بداية لذكريات فواحة بنسيم العذارى ونعومة الأيادي، وكأن العطر حاملٌ لملامح الراحلين وأصواتهم وضحكاتهم التي كانت تعبق في المكان، وهذا التمازج بين الطبيعة والوجدان، وبين الجغرافية والعاطفة يجعل من الأبيات مرآة صافية لحنين مكاني عميق، لا تُشعل جذوته المسافات فحسب، بل تغذية الذكريات والانتماء الأصيل إلى أرضٍ لم تغادر الشاعر وإن غادرها.

يتشكل الحنين المكاني إحدى الملامح في شعر عنترة، حيث يقترن المكان بالشعور، وتغدو الجغرافية امتدادً للذات المنفعلة بالتجربة في قوله[١]: (الرجز)

تُــرى هَــذِهِ ريــحُ أَرضِ الشَــرَبَّه أَمِ المِســكُ هَــبَّ مَــعَ الــريحِ هَبَّــه
وَمِــن دارِ عَبلَــةَ نــارٌ بَــدَت أَمِ البَــرقُ سَــلَّ مِــنَ الغَــيمِ عَضــبَه
أَعَبلَــةُ قَــد زادَ شَــوقي وَمــا أَرى الــدَهرَ يُــدني إِلَــيَّ الأَحِبَّــه

يفتتح الشاعر مقطع الحنين بسؤال تتلبسه الحيرة وتشف عنه صيغة(تُرى) التي توحي بتردد الذات أمام رائحة تهب مع النسيم؛ فهل هي ريح (أرض الشربة) ، أم عبق المسك، وهذا التداخل العطر الطبيعي والرائحة المستحضرة من الذاكرة يفضي إلى أول مظهر من مظاهر الحنين المكاني وهو تحول المكان إلى اثر حسي، وقد أحسن الشاعر توظيف حاسة الشم بوصفها أكثر الحواس ارتباطًا باللاوعي في تجسيد صلة الذات بالمكان، كما أم مقارنة ريح الأرض بالمسك لا تكتفي بمنح المكان قيمة جمالية، بل تمنحه مكانة شعورية لا تقل عن قداسة المعشوق.

يستمر البعد المكاني في التجلي عبر استدعاء (دار عبلة) لا بوصفها فضاءً للقاء فحسب، بل بصفتها موضعًا مشعًا؛ فالنار التي (بدت) قد تكون من دار الحبيبة، وقد تكون ومضة برق سلّ من غمد الغيم، وهذه المفارقة البصرية بين النار والبرق لا تعنى بالمقارنة

١ - ديوان عنترة: ٦٨

المجازية فحسب، بل تستبطن رغبة في بعث الحياة في المكان الغائب؛ فهي ليست مجرد وهج حسي، بل رمز للدفء الإنساني والحضور الأنثوي، في مقابل برق الرعد الذي لا استقرار له، وبالتالي يتبدى المكان كعنصر إشراق وجداني لا كمجرد معطى مكاني، وفي البيت الثالث يتحول الخطاب من الرمز إلى التصريح؛ فتبرز معاناة الذات من افتقاد المكان وذويه؛ فالشاعر لا يخاطب عبلة فقط، بل يخاطب من خلالها زمن المكان و مكان الزمن، متأسيًا من بعدٍ مضاعف البعد عن الأحبة، والبعد عن الدار التي كانت تجمعهم؛ فالمكان هنا ليس مجرد مقطة جغرافية، بل هو بؤرة للزمن المفقود، فكلما زاد الشوق استحال المكان إلى ذكرى والذكرى إلى ألم، وهذا ما يمنح الحنين المكاني أفقًا وجوديًا يتجاوز الوصف إلى التمثيل الرمزي للفقد المكاني في أعمق تمظهراته.

يتحول المكان عند عنترة إلى وعاء للذاكرة وموطنٍ للحنين تستيقظ فيه مشاعر الحب والغياب، ليغدو استحضاره فعلًا وجدانيًا يعيد للروح صلتها بما اندثر من وجودها القديم فيقول[1]: (الوافر)

لِمَـن طَلَـلٌ بِـوادي الرَمـلِ بـالي ... مَحَـت آثـارَهُ ريـحُ الشَـمالِ
وَقَفـتُ بِـهِ وَدَمعـي مِـن جُفـوني ... يَفـيضُ عَلـى مَغانيـهِ الخَـوالي
أُسـائِلُ عَـن فَتـاةِ بَنـي قُـرادٍ ... وَعَـن أَترابِهـا ذاتِ الجَمـالِ
وَكَيـفَ يُجيبُنـي رَسـمٌ مُحيـلٌ ... بَعيـدٌ لا يُـرَدُّ عَلـى سُـؤالي

تتمثل مظاهر الحنين المكاني في الابيات تمثلًا عميقًا يعكس صراع الإنسان مع الفناء ووعيه بالزمن بوصفه قوةً تمحو الأثر وتبدد المعالم، إذ يفتتح نصه باستفهامٍ إنكاريٍ يفيض وجعًا ودهشة، لا يراد به السؤال بل الاعتراض على الغياب، وكأنه يواجه صمت الزمن بنداءٍ خافت يستدعي الماضي الغائب، ومنذ اللحظة الأولى يمنح هذا الاستهلال القصيدة

١- ديوان عنترة: ١٧٤-١٧٥

طابعها الدرامي، إذ يضع المتلقي أمام مأزق الوجود الإنساني بين الحضور والغياب، بين أثرٍ باقٍ وكيانٍ اندثر؛ فالطلل في هذا السياق ليس مجرد بقايا مادية، بل هو ذاكرةٌ حية تستفز وجدان الشاعر وتوقظ ما خمد في أعماقه من حنين. وتأتي صورة "ريح الشمال" لتضفي على المشهد بعدًا رمزيًا مكثفًا، فهي تمثل قسوة الزمن التي تعصف بالمكان والذاكرة في آنٍ واحد، فيتلاشى الأثر من الأرض كما يتلاشى حضور الأحبة من القلب، ليصبح محو المعالم الخارجية انعكاسًا لخرابٍ داخلي يعيشه الشاعر، فيغدو المشهد الطبيعي مرآةً لروحه الموجوعة.

وعند لحظة الوقوف على الأطلال تبلغ التجربة ذروتها الوجدانية، إذ يتحول الوقوف من عادةٍ موروثة إلى طقسٍ شعوريٍ عميق يستحضر الحياة من رمادها؛ فدموع الشاعر ليست علامة ضعف، بل وسيلة مقاومة وصيغة بقاء، إذ يواجه بها محو الزمن محاولًا إعادة الحياة لما اندثر؛ فتغدو الدموع كالأقلام تكتب على رمال الذكرى سطور الحنين، وتحفظ ما تآكل من وجدان الشاعر؛ فالبكاء هنا ليس انفعالًا عابرًا، بل فعل إبداعي يجعل من الفقد مصدرًا للكتابة، ومن الألم وسيلةً لاستعادة الزمن المفقود، وإن الصمت الذي يحيط بالأطلال يتحول إلى لغة ثانية تفيض بالحزن والعزلة، حتى يغدو حوار الشاعر مع المكان مواجهةً مؤلمة مع ذاته، ومساءلةً لزمنٍ انقطع سرده ولم يبق منه سوى الأثر، فتتحول الأسئلة الموجهة إلى الأطلال إلى اعتراف بالعجز وإقرارٍ بأن الذاكرة وحدها ما تبقى من الوجود.

المبحث الثاني

((الحنين الزماني))

إن الحنين عاطفة إنسانية صادقة وتجربة وجدانية تعبر عن إحساس عميق بالفقد والاغتراب تجاه كل من غاب عن النفس أو ابتعد عنها، وهو إحساس ينشأ من ألمٍ يعيشه المرء حين يفتقد مكانًا أو زمانًا أو أحبة ارتبط بهم، وقد ارتبط هذا الشعور بالإنسان العربي منذ القدم، إذ نجده يستدعي الأزمنة والأمكنة الماضية التي لا تنفصل عنها الذاكرة مهما

طال البعد[١]؛ فالحنين في جوهره شوق ممتزج بالأسى إلى ما مضى من أيام و شخوص وعوالم، وكان الماضي يتحول إلى ملجأ تستقر فيه النفس، وتستعيد لحظات الفرح وبهجة اللقاء بعيدًا عن قسوة الواقع، ولأن الأدباء أكثر حساسية من غيرهم، فإن هذا الوجد ينعكس في إبداعهم بوصفه صدى لتجارب فردية وجماعية تترجم اثر الزمان والمكان في تكوين مشاعرهم[٢].

يميل الإنسان بفطرته إلى الارتماء في أحضان الماضي، مستدعيًا إياه بوصفه مأوى يلوذ به من قسوة الحاضر واضطراباته؛ فالحنين لا يأتي عابرًا بل هو استجابة عميقة لحاجة داخلية تبحث عن السكينة المفقودة، وحين يخذلنا الحاضر بما يحويه من خيبات وأوجاع، ينبعث الحنين ليكون وسيلة لمقاومة ذلك الاحباط، فنستعيد الماضي لا كما كان حقيقة بل كما صاغته ذاكرتنا وأضفت عليه من صفاء وخيال، وهكذا يغدو استرجاع الزمن الغابر تعويضًا عن شعورٍ بالضياع، وردمًا للفجوات التي أحدثها الواقع في النفس؛ فيمنح الذات توازنًا جديدًا ومعنى تستند إليه لمواجهة خيباتها.

يعمد عنترة إلى إعادة توظيف الطلل كمدخل زماني لا كمحطة مكانية فقط؛ فهو لا يمثل جغرافية مادية بل يتحول إلى علامة دالة على زمن مفقود، إذ لا يستحضر بذاته، بل بقدرته على إثارة الذاكرة وتحفيز العاطفة في قوله[٣]: (الطويل)

---

١ - ينظر: اشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب:د.سعيد رضا ميرا حمدي، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ١١، ٢٠١٢.

٢– ينظر: مظاهر النوستالجيا في شعر امرئ القيس:أ.م.د عزت ملا ابراهيمي، مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية، جامعة بابل، عدد٣٨، نيسان، ٢٠١٨ :٢٦٢.

٣- ديوان عنترة:٢١٨.

لِمَــن طَلَــلٌ بِــالرَقمَتَينِ شَــجاني وَعاثَـت بِـهِ أَيـدي البِلـى فَحَكـاني
وَقَفـتُ بِـهِ وَالشَـوقُ يَكتُـبُ أَسـطُراً بِـأَقلامِ دَمعـي فـي رُسـومِ جَنـاني
أُســائِلُهُ عَــن عَبلَــةٍ فَأَجــابَني غُـرابٌ بِـهِ مـا بـي مِـنَ الهَيَمـانِ
يَنـوحُ عَلـى إِلـفٍ لَـهُ وَإِذا شَـكا شَــكا بِنَحيــبٍ لا بِنُطــقِ لِســانِ

إن في هذه الأبيات مظاهر الحنين الزماني في أبهى صورها، إذ يفتتح عنترة مشهده الشعري بالوقوف على الأطلال، وهو وقوف يوقظ الذاكرة ويستحضر الماضي ما فيها من دفءٍ ووجع؛ فالطلل هو الشرارة التي تستفز الوجدان وتبعث ما سكن الأعماق من ذكرى، حتى يغدو أثر المكان بوابة إلى استعادة الزمن الغائب، ويأتي الفعل (حكاني) ليكثف هذا الإيحاء الزمني، إذ يصور الأثر وكأنه يروي للشاعر حكاية الماضي؛ فيتحول الطلل إلى كائنٍ حي يهمس في أذن الذاكرة بأوجاعها، ويجعل مرور الزمن عملية مؤلمة تستعيد ما اندثر، ومن رحم هذا الإحساس الموجع تتفجر صورة الشوق التي تتحول إلى أقلام؛ فالشاعر لا يبكي فحسب بل يجعل من دمعه أداة للكتابة؛ فتغدو الدموع فعلاً إبداعيًا لا يكتفي بالسقوط، بل يدون على صفحات الذاكرة سطورًا من الحنين؛ فيتحول الزمن الماضي إلى كتابةٍ حية تجسد حضور الذاكرة في مواجهة الفناء.

ومع تصاعد هذا البوح العاطفي، يبلغ الشاعر إلى ذروة انكساره حين تتكثف تجربته الوجدانية في حوارٍ رمزي مع الغراب، والذي يجسد مرارة الاغتراب الزماني بوصفه صوتٍ من أعماق الشاعر نفسه يحمل نعيًا خافتًا لذاكرته المنهكة، ويعبر عن وجعٍ يتجاوز حدود اللغة إلى أنينٍ كوني يشترك فيه الإنسان والطبيعة.

ويتجلى الحنين الزماني الذي يحمل طابعًا تراجيديًا عميقًا عبر عدة مستويات: تقلب الزمان، الخيانة وفقد الأحبة، وتبدل الاحوال في قوله[1]: (الطويل)

أُعاتِــبُ دَهــراً لا يَلــينُ لِناصِــحِ وَأُخفــي الجَــوى فــي القَلــبِ وَالــدَمعُ

١- ديوان عنترة:٩١

وَقَومي مَعَ الأَيّامِ عَونٌ عَلى دَمي وَقَد طَلَبوني بِالقَنا وَالصَفائِحِ
وَقَد أَبعَدوني عَن حَبيبٍ أُحِبُّهُ فَأَصبَحتُ في قَفرٍ عَنِ الإِنسِ نازِحِ

يتضح الحنين الزماني في هذه الابيات تجليًا عميقًا، يكشف عن طبيعة الصراع الداخلي الذي يعيشه الشاعر نتيجة الانفصال القسري عن ماضٍ كان فيه أكثر استقرارًا وطمأنينة، وهذا الحنين لا يفصح عنه الشاعر افصاحًا مباشرًا، بل يتسلل إلى القارئ من خلال بنية شعورية تنبني على عتاب مرير للدهر الذي اضفى عليه الشاعر صفات الإنسان؛ فجاء التشخيص بوصفه كيانًا يعاند النصيحة ويرفض الاستجابة لمطالب النفس المثقلة بالألم، وهذا الخطاب العتابي يكشف عن موقف وجداني حاد تجاه الزمن لا بوصفه مجرد إطار للأحداث بل كفاعل سلبي ساهم في انكسار الذات وتغير الأحوال؛ فالشاعر لا يتحسر على مكان أو شخص وحسب، بل يئن لفقد منظومة زمنية متكاملة كانت تؤمن له الأمان الداخلي والانتماء الاجتماعي، ويتجلى هذا الحنين في الصورة المؤلمة لاختزان الجوى في القلب وهو الألم الصامت الممتد زمنًا حتى يغدو الدمع وهو مظهر لا إرادي، ووسيلة البوح الوحيدة التي تفضح خفايا الوجدان.

يتصاعد الحنين إلى زمان لم يعرفه الشاعر، زمن تصان فيه الروابط ولا يغدر فيه بالقريب؛ عكس قومه الذين كان يفترض أن يكونوا سنده صاروا مع مرور الأيام عونًا على قتله، وهذا التحول لا يقدم كحادثة معزولة، بل يربط صراحة ب (الأيام) لتغدو دلالة الزمن هنا مزدوجة فاعلًا في التغير وشاهدً عليه، ويكمل الشاعر ليبلغ الحنين ذروته حين يقصى الشاعر قسرًا عن محبوبته، فيتحول من دائرة الأنس إلى فضاء الفقر والعزلة، إذ تبرز المفارقة الزمنية بين (كان) و(أصبح) عمق الانكسار النفسي الناتج عن الانتقال من دفء العلاقة الانسانية إلى برودة الوحدة المكانية، مما يكرس الحنين إلى زمنٍ لم يكن فيه الشاعر مجرد فرد منفي، بل كائنًا متصلًا بالآخرين وجدانًا ووجودًا.

لم تكن الديار التي وقف عليها الشاعر مجرد حيز مكاني خالٍ، بل كانت مرآة عكست ماضيًا غاب تحت ركام الحاضر في قوله[١]: (الكامل)

يـــا دارُ أَيـــنَ تَرَحَّـــلَ السُـــكّانُ   وَغَـــدَت بِهِـــم مِـــن بَعـــدِنا الأَظعـــانُ

بِـــالأَمسِ كـــانَ بِـــكِ الظِبـــاءُ أَوانِســـاً   وَاليَـــومَ فـــي عَرَصـــاتِكِ الغِربـــانُ

يـــا دارَ عَبلَـــةَ أَيـــنَ خَـــيَّمَ قَومُهـــا   لَمّـــا سَـــرَت بِهِـــمُ المَطِـــيُّ وَبـــانوا

في هذه الأبيات لا يقف الحنين عند حدود الذكرى، بل يتجاوزها ليصبح وجهًا لوجه مع الزمن نفسه، في صراع مرير بين الأمس الذي كان يضج بالحياة، واليوم الذي أطبق عليه الصمت؛ فصرخت الشاعر(يا دار اين ترحل السكان) ليست سؤالاً بقدر ماهي لوعة تنفجر في وجه الفراغ، وإنها بداية حكاية عنوانها (زمن كان) حكاية يبدأها الشاعر بمشهدين متناقضين (أمسٌ يعجّ بالظباء) تلك الرموز للجمال والأنس، ويوم غطت فيه (الغربان) نذير الشؤم والخراب على عتباتِ الأمس الغابرة، وهذا التضاد الصارخ ليس مجرد وصف، بل هو قلب الحنين الزماني النابض؛ فالشاعر لا يبكي جدران الدار بل يبكي زمنًا مضى معه الأنس والبهجة.

يتجلى الحنين الزماني في قصيدة يا طائر البان في أبهى صوره، إذ يختلط الحب بالزمن، وتتحول الذكرى إلى كيان يملأ النص بالحياة رغم طابع الفقد المسيطر عليه فيقول[٢]: (البسيط)

يـا طـائِرَ البـانِ قَـد هَيَّجـتَ أَشـجاني   وَزِدتَنـــي طَرَبـــاً يـــا طـــائِرَ البـــانِ

إِن كُنـتَ تَنـدُبُ إِلفـاً قَـد فُجِعـتَ بِـهِ   فَقَـد شَـجاكَ الَّـذي بِـالبَينِ أَشـجاني

زِدني مِنَ النَوحِ وَاِسعِدني عَلى حَزَني   حَتّـى تَـرى عَجَبـاً مِـن فَـيضِ أَجفـاني

وَقِـف لِتَنظُـرَ مـا بـي لا تَكُـن عَجِـلاً   وَاِحـذَر لِنَفسِـكَ مِـن أَنفـاسِ نيرانـي

وَطِـر لَعَلَّـكَ فـي أَرضِ الحِجـازِ تَـرى   رَكبـــاً عَلـــى عـــالِجٍ أَو دونَ نَعمـــانِ

١- ديوان عنترة:٢٢٠.

٢- ديوان عنترة: ٢١٧.

يَســـري بِجارِيَـــةٍ تَنهَـــلُّ أَدمُعُهـــا شَـــوقاً إِلـــى وَطَـــنٍ نـــاءٍ وَجيـــرانِ
ناشَـــدتُكَ اللَهَ يـــا طَيـــرَ الحَمـــامِ إِذا رَأَيـــتَ يَومـــاً حُمـــولَ القَـــومِ فَاِنعـــاني
وَقُـــل طَريحـــاً تَرَكنـــاهُ وَقَـــد فَنِيَـــت دُموعُـــهُ وَهـــوَ يَبكـــي بِالـــدَمِ القـــاني

تبدأ تجربة الحنين الزماني في الأبيات منذ المطلع بنداءٍ مليء بالشجن يتجاوز الظاهر الحسي إلى بعدٍ رمزي أعمق، إذ لا يخاطب الشاعر الطائر في ذاته، بل ما يمثله من صوتٍ قادمٍ من الماضي، ورمزٍ للذاكرة التي توقظ ما خمد في النفس من شجونٍ وحنين؛ فالطائر في بنية القصيدة يتحول إلى مفجر عاطفي يستدرج عبر صوته الحنين الزماني الكامن في وجدان الشاعر، ويعيد بعث الماضي في صورة حسية نابضة؛ فهو شريك في المأساة الإنسانية التي يعيشها الشاعر، إذ يشاركه في الاغتراب والتوجع؛ فيغدو صوته امتدادًا لصوت الشاعر نفسه، وهذا التوظيف الرمزي يجعله وسيطًا بين الذاكرة والزمن، وجسرًا يربط بين ما انقضى وما يستعاد؛ فتبدأ حركة الحنين منذ اللحظة الأولى لانبعاث صوته في النص.

يمضي الشاعر فيستدعي مشهد الحمول بوصفه صورةً عالقة فب الذاكرة، يستحضر من خلالها تفاصيل الرحيل في محاولةٍ لإعادة تشكيل الزمن المفقود، وجعل الماضي حيًا في الحاضر عبر فعل التذكر الشعري؛ فالرحيل عنده لا يعبر عن انتقالٍ مكاني، بل انقطاعٍ رمني يرمز إلى انقطاع أيام الوصال وهو ما يتجلى في قوله: (ناشدتُكَ الله يا طيرَ الحمامِ إذا رأيتَ يومًا حُمولَ القوْمِ فأنعاني) إذ وظف تقنية الاسترجاع ليعيد بناء الزمن الضائع من خلال الصورة الشعرية؛ فيجعل الذاكرة فضاءً لاستمرار الحياة رغم الفقد، وهكذا تتقاطع الأزمنة في النص فيتحول الحنين إلى فعل استعادةٍ للحياة، لا مجرد تذكر للفقد، ويغدو الشعر أداةً لتجاوز حدود الزمن عبر استحضار لحظاته الأليمة والجميلة معًا في وعي الشاعر ووجدانه.

ويتخذ الحنين الزماني بعدًا أكثر كثافة في الصور المرتبطة بالبكاء والدموع والأنين، إذ لا يبكي الشاعر على مكانٍ محدد، بل على زمنٍ لا يمكن أن يعود؛ فتتحول الدموع إلى شاهدٍ على استمرارية الفقد، وإلى أثرٍ زمني يمتد عبر الذاكرة، فلا يكون البكاء فعلاً آنياً، بل حالةً متواصلة من الانكسار الوجداني، أما المكان فيتراجع في هذه القصيدة إلى مرتبةٍ رمزية تابعة للزمن، إذ تُذكر المواضع كالحجاز ونعمان لا باعتبارها أمكنة محسوسة، بل بوصفها علاماتٍ زمنية تستدعي ما كان يجري فيها من وصلٍ ومودة؛ فالمكان هنا وعاء للذاكرة أكثر منه كياناً مادياً، ووجوده مشروط بحضوره في الوجدان؛ لأن الشاعر لا يحنّ إلى أرضٍ بعينها، وإنما إلى الزمن الذي جمعه بأحبّته فيها، ومن ثم يغدو المكان أداةً لتجسيد الحنين الزماني لا موضوعاً له.

تكشف لغة الشاعر عن طبيعة هذا الحنين، إذ يغلب عليها الفعل الماضي (كان، تركناه، ووفيت) وهي أفعال تستدعي الذاكرة وتؤكد الانفصال بين زمن الوجود وزمن الفقد، أما الأفعال المضارعة فترد مشحونة بإحساس التذكر، وكأنها تكتب الحاضر بمداد الماضي، لتغدو اللغة في مجملها وسيلةً لأحياء الزمن الضائع وإعادة صياغة الوجود عبر الكلمة.

وفي نص آخر يقول[١]: (الطويل)

أَشــاقَكَ مِــن عَبـلَ الخَيــالُ المُـبَهَّجُ   فَقَلبُـــكَ مِنـــهُ لاعِـــجٌ يَتَـــوَهَّجُ
فَقَــدتَ الَّتــي بانَــت فَبِــتُّ مُعَــذَّباً   وَتِلــكَ اِحتَواهــا عَنــكَ لِلبَــينِ هَــودَجُ
خَليلَــيَّ مــا أَنســاكُما بَــل فِــداكُما   أَبــي وَأَبوهــا أَيــنَ أَيــنَ المُعَــرَّجُ
دِيــارٌ لِـذاتِ الخِـدرِ عَبلَـةَ أَصـبَحَت   بِهــا الأَربَــعُ الهــوجُ العَواصِــفُ تُـرهِجُ

تتبلور تجربة الشاعر في صورة فنية متكاملة تتداخل فيها مشاعر الحنين والشكوى والمناجاة في نسيجٍ شعري متماسك يعكس عمق الوجدان الإنساني وصدق الانفعال العاطفي؛ فيبرز الحنين الزماني بوصفه البؤرة الأساس في هذه الأبيات، إذ لا يتجه الشاعر

١- ديوان عنترة :٨٦

بشوقه إلى المكان المادي بقدر ما يتوق إلى زمن الوصال الذي انقضى، فترك في نفسه فراغًا لا تملؤه إلا الذكرى، ويظهر هذا الشعور منذ مطلع الأبيات عبر تساؤله عن أثر الخيال المبهج الذي يوقظ في قلبه نار الشوق واللوعة؛ فيتحول الحنين إلى شكوى ممتدة تعبر عن استمرار المعاناة وامتدادها عبر الزمن، ويتجلى ذلك بدلالة الفعل الماضي (فبتّ معذبًا) والذي ينذر بعمق التجربة وثبات أثرها في نفس الشاعر، ليتحول الألم الفردي إلى تجربة شعورية متكررة تتجاوز حدود اللحظة.

ويوظف الشاعر مجوعة من الأساليب الفنية التي تضفي على تجربته الشعرية عمقًا فنيًا ودلاليًا متنوعًا؛ أولها أسلوب المناجاة إذ يجعل من الحنين حوارًا داخليًا بين الذات ووجدانها؛ فيخاطب قلبه وكيانه كما لو كانا كائنين نابضين بالحياة يشاركانه الألم واللوعة؛ فتتحول المشاعر إلى حركة درامية تتصاعد فيها الانفعالات ويصبح الوجدان مسرحًا تتجلى فيه صراعات النفس وتوتراتها، أما عن ثانيهما فهو أسلوب التجريد الذي منح الأبيات بعدًا جماليًا أعمق، إذ صور الشاعر قلبه في مطلع الأبيات بوصفه رمزًا للشوق ومركزًا للعاطفة لا مجرد عضو مادي في الجسد، ثم تجده في البيت الثالث يجرد فؤاده ويمنحه صفات الكائن الحي(الهارب المتمعج)؛ ليرسم صورة نفسية مفعمة بالحركة والتوتر، تعكس اضطراب الذات في لحظة الوداع حين يتقاطع الشعور بالزمن مع الإحساس بالفقد، ويبلغ التجريد ذروته في نداء (خليلي) إذ يستدعي الشاعر صاحبيه لمشاركته مرارة الفقد في محاولة لإحياء صدى صوته وسط صمتٍ داخلي ثقيل؛ فيصبح النداء رمزًا لرغبة الإنسان في التشارك الإنساني أمام وجع يتجاوز قدرته على الاحتمال.

الخاتمة:

أهم النتائج:

- يشكل شعر عنترة تجسيداً فنيًا عميقًا لتداخل الحنين المكاني والزماني في تجربة إنسانية تنبض بالوجدان والوعي؛ فالمكان عنده ليس فضاءً جغرافيًا، بل ذاكرة حية تختزن آثار الغياب، وتتحول فيها الديار والربوع إلى رموزٍ لحضورٍ مفقود يستعاد بالوجدان لا بالبصر؛ فيغدو المكان مرآة للروح وامتدادًا للزمن الضائع، أما الحنين الزماني فينطلق من توقٍ دائم إلى زمن الفروسية والوصال والصفاء وزمن يجد فيه عنترة ذاته المفقودة وسط قسوة الحاضر، لذا تتكرر في شعره الأفعال الماضية وصور التذكر والأنين بوصفها محاولات لإحياء ما انقضى؛ فيتحول شعره إلى مقاومةٍ للزمن وسعي إلى الخلود، إذ تصبح الكلمة وسيلته لإنقاذ الذاكرة من الفناء؛ فيجمع بين حرارة العاطفة وعمق الوعي ليصوغ تجربةً شعرية تجعل من الحنين فعلًا وجوديًا يعيد تعريف العلاقة بين الإنسان والمكان والزمن.
- يتخذ الحنين في شعر عنترة بعدًا عميقًا؛ فهو يمثل صراعًا بين المكان المفقود (ديار عنترة) والزمن الغابر(زمن الأمان) بهذا يصبح الحنين لديه ليس مجرد شوق، بل قضية وجودية يحارب من أجلها ويعلق عليها قيمة نفسه وطهر روحه.

المصادر والمراجع:

١. اشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب:د.سعيد رضا ميرا حمدي، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ١١، ٢٠١٢.

٢. أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف: د.مرشد أحمد، دار الوفاء، مصر، ط١، ٢٠٠٣.

٣. جمالية المكان والحنين إلى المدينة المفقودة: يمنى عيد، مجلة الآداب، ع٩|١٠، بيروت–لبنان، ١٩٩٧، ٧٦.

٤. ديوان عنترة: ج١،ج٢، دار نوبليس، بيروت _لبنان.

٥. شحنات المكان: ياسين النصير، وزارة الثقافة، الدوحة– قطر، ط١، ٢٠١٠.

٦. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح، كلية الآداب والعلوم الانسانية، ١٩٩٣.

٧. الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا: إبراهيم جنداري، ط١، ٢٠١٣.
٨. مظاهر النوستالجيا في شعر امرئ القيس: ا. م. د عزت ملا ابراهيمي، مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية، جامعة بابل، عدد٣٨، نيسان، ٢٠١٨.
٩. معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، القاهرة– مصر، ٢٠٠٨.

References:

1- Forms of Nostalgia for the Past in the Poetry of Badr Shakir al-Sayyab, Dr. Saeed Reda Mira Hamdi, Journal of Studies in Arabic Language and Literature, Peer-Reviewed Quarterly, No. 11, 2012.
2- The Humanization of Space in the Novels of Abdul Rahman Munif, Dr. Murshid Ahmad, Al-Wafa Publishing House, Egypt, 1st Edition, 2003.
3- The Aesthetics of Place and the Nostalgia for the Lost City, Yumna al-ʿId, Al-Adab Magazine, Issues 9–10, Beirut–Lebanon, 1997, p. 76.
4- The Diwan of ʿAntarah, Vol. 1–2, Nobilis Publishing House, Beirut–Lebanon.
5- The Charges of Place, Yasin al-Nasir, Ministry of Culture, Doha–Qatar, 1st Edition, 2010.
6- Exile and Nostalgia in Andalusian Poetry, Fatima TahTah, Faculty of Arts and Humanities, 1993.
7- The Narrative Space in the Literature of Jabra Ibrahim Jabra, Ibrahim Jandari, 1st Edition, 2013.
8- Manifestations of Nostalgia in the Poetry of Imru’ al-Qais, Asst. Prof. Dr. Izzat Mulla Ibrahimi, Journal of the College of Basic Education for Educational and Human Sciences, University of Babylon, No. 38, April 2018.
9- Contemporary Arabic Language Dictionary, Ahmed Mukhtar Omar, 1st Edition, Alam al-Kutub, Cairo–Egypt, 2008